جوانب عن تربية الطفل في المغرب الأوسط
ما بين القرني (6-9هـ /12-15م)

أ.بصديق عبد الكريم*

الملخص:

من المواضيع الشائكة في التاريخ الاجتماعي لبلاد المغرب الأوسط، موضوع التربية والطفولة ما يجعلنا نتساءل عن طرقها وأساليبها وما مدى تفاعلها مع منهاج الشريعة الإسلامية و الأعراف و العادات الاجتماعية ؟في هذه الدراسة توصل المؤلف أهمية الدور الذي قامت به الأسرة في تربية ابناها وتكوينه أخلاقيا وجسميا ومحاولتها دمجه في الحياة المهنية ،دون أن نغفل دور المؤدب التربوي والمحيط الاجتماعي في الوسط البدوي و الحضري في تكوين الطفل وتربيته.

Abstract :

Thorny topics in the social history of the Maghreb East, the subject of education and childhood's what makes us wonder about the methods and tactics and how they interact with the Platform for Islamic law and norms and social customs.?

In this study, the author found the importance of the role played by the family in the upbringing of her two sons and configure morally and physically, trying to incorporate it in professional life, without having to overlook the role of educational polite social environment in the Bedouin sector in urban and upbringing of the child and configuration.

* - باحث في التاريخ الوسيط الإسلامي ، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية ، جامعة وهران 1 ، الجزائر

مقدمة :

جرى العرف أن تكون التربية ذلك الكل المركب من التصرفات العملية والقولية التي يمارسها البالغ بإرادته نحو الصغير بهدف مساعدته في اكتمال نموه وتفتح استعداداته اللازمة وتوجيه قدراته، ليتمكن من تحقيق الاستقلالية في ممارسة النشاط والوصول لغاياته؛ فيعمل المربي على منهجية الاعتدال والاتزان في تكوين الطفل في محيط ذو طابع شمولي تكاملي لجانب جوانب الشخصية الروحية والعقلية والأخلاقية والإنسانية.لكننا نتساءل عن واقع الطفل في المغرب الأوسط وعن أساليب تربيته واتجاهاته في الفترة التاريخية الممتدة من القرن السادس إلى التاسع الهجري(ق12م-15م). حاولنا في هذا المقال التعرف على مناهج تربية الطفل وطرق تأديبه بالإضافة إلى التوجه إلى دور الأسرة والمؤدب التربوي وذلك باستقرائنا لبعض المصادر التاريخية التي عنيت بتاريخ وحضارة المغرب الأوسط على اختلاف حقولها المعرفية من النصوص التاريخية والمناقبية والإفتائية.

أولاَ–التربية والرعاية الصحية للطفل:

تعد مرحلة الطفولة من أهم مراحل التكوين ونمو الشخصية وهي إعداد و ترتيب للطفل ليقوم بالدور المطلوب منه في الحياة؛ون هنا كانت حاجة الطفل شديدة لملازمة أبويه في هذه المرحلة من نموه،من الولادة إلى البلوغ تقوم الأم والوالد على رعاية ابنهما صحياَ وأخلاقياَ حتى يكتمل نموه على منهج قويم.

ا–الفطام والرضاعة[1]:

يشير عبد الرحمن ابن خلدون إلى دور القابلة في مدة فطام الطفل إذ يقول في هذا الشأن:«...وكذلك ما يعرض للمولود مدة الرضاع من أدواء بدنه إلى حين

الفصال نجدهن أبصر بها من الطبيب الماهر ،وما ذاك إلاّ لان بدن الإنسان في تلك الحالة إنما هو بدن إنساني بالقوة فقط، فإذا جاوز الفصال صار بدنا إنسانيا بالفعل، فكانت حاجته حينئذ إلى الطبيب اشد،فهذه الصناعة كما تراه ضرورته في العمران للنوع الإنساني، لا يتم كون أشخاصه في الغالب دونها...»[2].

نستشف من هذا النص المهم الدور الذي تلعبه القابلة في فطام المولود وحسن تدبيرها الذي يرقى إلى الطبيب الحاذق،كما يؤكد ابن خلدون أن الاستغناء على رعاية الطفل تضر بتربيته كشخص سوي،كما نفهم منه خبرة القابلة بالصنعة الطبية ووصف الأدوية المناسبة لأمراض النساء،ويدل ملازمتها للمرأة النفساء والمرضعة على مراحل،وهي ضرورة زمنية تراعي الصحة الجسمانية للطفل حتى ينمو بصفات آدمية عادية.

كما ينوه ابن خلدون إلى الحالات النادرة التي يتم فيها استغناء الأسرة عن تطبيب أطفالها فيقول: «وقد يعرض لبعض أشخاص النوع الاستغناء عن هذه الصناعة إما بخلق الله ذلك لهم معجزة وخرقا للعادة كما في حق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم،أو بالهام وهداية يلهم الله لها المولود و يفطر عليها،فيتم وجودهم من دون هذه الصناعة »[3]. فحسب ابن خلدون لابد أن التربية الصحية للطفل ومعاينته من قبل الطبيب أمر ضروري.لتجنب الأمراض التي يتعرض لها في بداية نموه كالربو وورم السرة ودائي الحصبة والجدري.

ب–أمراض الطفل :

شكلت الرعاية الصحية اهتماما كبيرا من قبل الباحثين من خلال تكفل الأسر بأفرادها لكننا أمام إشكالية الطفل جزء مهم لا يتجزأ من المنظومة العائلية اتجاه الأمراض والأوبئة التي لا تميز بين الأفراد فحاولنا تقصي أهم الأمراض التي تصيب

الطفل وأعراضها وأسباب انتشارها غير أننا نتساءل عن دور الأسر الحاضرة والبادية لحماية أولادها من المخاطر المرضية.

انتشرت في عهد الموحدين عدة أمراض أصابت الأطفال منها القروح التي تصيب الرأس وداء الحية هو من الأمراض الجلدية التي تقشر الجلد ومن أعراضه سقوط الشعر، كما تفشى داء السعفة وهو عبارة عن قروح بادية على أوجه ورؤوس الصبيان[4].

انتشرت عدة أمراض في العهد الزياني أصابت الأطفال كالأرق والخوف والتهاب العينين الذي يصيب الطفل بالبكاء الدائم الغير المنقطع[5] وداء القرع الذي يصيب النساء والأطفال ويصفه الحسن الوزان قائلا: «يكون القرع عادة في رؤوس الأطفال الصغار والنساء البالغات ويصعب الاستشفاء منه إلا بمشقة عظيمة»[6] ومن الأمراض التي تتعرض الصبيان بكثرة داء الإسهال والشكية والكند[7].

ناهيك عن أمراض الأسنان خاصة في فترة بداية خروجها،وفي هذا يقول الوزان «وتكون أمراض الأسنان التي يظن أنها ناشئة عن كون هؤلاء القوم يشربون الماء البارد فور تناول الحساء الحار»[8] ومرض انتفاخ الحلق[9]، كما يتعرض الأطفال إلى النزلات التي تنحدر من الدماغ إلى الصدر[10].

تصنف الأمراض إلى نوعين : أمراض مزمنة وغير مزمنة،أما الأولى فهي علل عرضية يسهل علاجها وأمراض مزمنة وهي علل يصعب برئها[11] ويذكر الونشريسي منها"أمراض الرأس" كالشقيقة والصداع والبرنسام[12]، كما انتشرت أمراض المعدة والأمعاء وداء القولنج[13] لكننا نتساءل عن دور الأسرة في علاج الأطفال تتكفل الأسرة بمريضها وهذا ما يعكس قوة التماسك العائلي حيث يزورون مريضهم الأقرباء والجيران وتحمل له الهدايا والمآكل التي يشتهيها العليل ويتم تبادل طريف الكلام الذي يروح عنه ودعاء بالشفاء،كما تحرص الأسرة على استحضار الطبيب دوريا وعدم

التهاون في ذلك،أشار ابن قنفذ إلى ولد أصابه الإسهال وعمل والداه على تمريضه واستدعوا الأطباء في البيت أين تمت معاينته لكن لمرض استعصى على الطبيب حتى اشترى له أبوه نبقا وانتفع بكرامة احد الأولياء وبعد تناوله للنبق شفي[14].

تهتم الأسرة بالرعاية الصحية بطفلها منذ ولادته من خلال دور القابلة استئصاله للرحم الأم ومعالجة لحساسيات التي يتعرض لها ، افرد ابن خلدون في الفصل 28 من مقدمة كتابه العبر باب عن التوليد وكشف أن تعمل القابلة على قص السرة الموصولة(الحبل السري) بأمعائه ثم تكوي المكان البتر ، هذا بالنسبة إلى إخراجه من الرحم[15]، ثم تقوم القابلة بدهن أعضاء الولود بالدهون المختلفة لشد جسده[16] وهذه الطريقة لا تزال متبعة في الطب الحديث.

ثانياَ:التربية الأخلاقية للطفل:

نجد إشارات متفرقة في المصادر تدل على منهجية الأسرة في تربية الطفل الصغير،من خلال توجيهاتهم التربوية إلى الآباء في تعليمهم آداب الأكل و النوم في أوقاته ،و يرجع دور إلام في الاعتناء بنظافة بدنه و ثيابه و حرص الأب على مراقبة ابنه و تعويده على خصال الحياء و التأدب في الكلام[17] و البر بوالديه[18].

اقترن مفهوم التربية في مجتمع المغرب الأوسط بالإفادة والتعليم[19] لا يقتصر تعليم الأب لابنه الآداب العامة بل يحظى به إلى تحصيله العلمي،ونكاد نجد هذا العمل منحصرا على أبناء الأسر العلمية خصوصا. من الأمثلة التي نستقيها في هذا "أبو عبد الله الشريف"الذي تتلمذ على يد أبيه«...ثم اقبل عليه،وقد كملت تهيئته لقبول الحقائق،وتم استعداده لفهم الدقائق،فنفث فيه وأودعه سره في أصول الدين،فقرا عليه الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي...»[20]، وكان محمد ابن الحاج المناوي يدرس ولده الصغير محمد وابن أخيه محمد أمقران ابن أبي عبد الله بن الحاج وأخوه حدو ابن الحاج [21]،

كما يعكف الأخ على تعليم أخيه مثلما فعل علي التالوتي[22] عندما لقن أخاه من الأم الشيخ محمد بن يوسف السنوسي في صغره متن الرسالة[23].

تبدآ التنشئة الأخلاقية للطفل من مرحلة الطفولة حيث يشرف الأب على تعليم ولده فريضة الصلاة[24]، ويذكر ابن مرزوق الحفيد في هذا أن أبي عبد الله محمد بن منصور بن علي بن هدية القريشي في صباه انه كان يصلي صلاة التراويح في جامع الأعظم[25] كما نستشف من بعض النصوص اصطحاب الأب لأهله وولده في أداء مناسك الحج والعمرة،من خلال رحلة ابن مرزوق مع أبيه إلى الحج في عدة مرات في سن مبكرة جدا[26] و ذهاب القاضي أبي الحسن بن عبد النور رفقة ولده وأهله إلى الحج[27] و يذكر ابن مرزوق الحفيد إن والده أبا العباس البس الخرقة من قبل الولي الصالح بلال الحبشي[28] حتى أن الأولاد الصغار كانوا يتتبعون أوليائهم في خلواتهم[29]، يتبين لنا من النصوص دور الأولياء في تربية أبنائهم على المنهاج السليم.

لعل الأسر الميسورة اتخذت مربيات،وهذا ما يفسر الخطاب التربوي لجماعة المحتسبة في دعوة الآباء و حثهم على الحرص و الشد في تربية أبنائهم[30]،كما تقع حالات عقوق الأبناء لأوليائهم،لكننا نتساءل عن واقع تربية الأطفال في البادية،هل كانت مختلفة عن التربية في الحواضر.

ا–دور الأسرة في تأديب الطفل:

يقوم الأب بتأديب الابن بتعزيره أو ضربه أو حبسه في المنزل[31].يروي ابن مريم عن طفولته حادثة تشاجره مع جاره ولما حضر مجلس الشيخ احمد أبركان الورنيدي[32] تقدم إليه وسلم على شيخه ،فنهره وعاتبه حول موضوع الشجار مع أن ابن مريم زعم انه المظلوم في القضية[33].

يذكر ابن مريم في ترجمته للشيخ الحسن الراشدي أبركان (الحسن بن مخلوف بن مسعود بن سعد بن سعيد المزيلي)[34] جانبا عن صباه فيقول على لسانه:«...كنت ألعب مع الصبيان ،وربما أتجرد من ثيابي وأبقى عريانا كما يفعل الصبيان»ويبدو أن الصبي كان بزجر على هذا الفعل[35].

ذكر الفقيه العقباني أن احد الصلحاء المدعو حمديس قام بحبس«مرد بطالين يفسدون بالدراهم و قيدتهم في أرجلهم فصوب فعله وقام بحبسهم عند آبائهم لا في السجن »[36].نزيد هذا الطرح تأكيدا من خلال سرد ابن مريم قصة حادثة وقعت لأخيه إبراهيم بن محمد الشريف الذي ذهب لاسترداد رداء أخته عائشة «...فوجد صبيا صغيرا كان سارقا يسرق الحوانيت فحبسه وقال له:"لا أطلقك حتى تعطيني رداء أختي الذي سرق البارحة، ثم إنه ضربه ،فقال له :يا سيدي تراه في درب اليهود عند اليهودية الفلانية»[37].

نفهم من هذا النص أن مستوى تربية الأبناء كانت متفاوتة لدى الأسر،كما أن الضرب كوسيلة للتأديب تكون ناجعة في تأديب الطفل، وان كان بعض الفقهاء ينهون عن ضرب الصبيان ضربا لا يليق إلا بقدر جرمه[38]، ويبدو أن هذه الطرق التأديبية كانت مشابهة بالبلاد المشرقية[39].

اتسمت تربية الطفل في البادية في بعض المواضع بالعنف وهذا راجع إلى تعالي سلطة الأب على مستوى الأسرة القروية[40]، أما عن معاملة الأبناء داخل الطبقة الخاصة فكانت ترتكز على النصيحة والموعظة لاسيما عند بلوغهم[41] وهو عكس ما كان في الوسط الريفي.نلاحظ الاهتمام الذي تميزت به فئة الفقهاء والعلماء لتربية

أبنائهم وتقويمهم منذ الصبا[42]، ولعل الأسباب تكمن في إهمال تربية الطفل بالبادية هو طول غيبة الأب عن البيت بسبب الانهماك في العمل لكسب القوت[43].

وقد تزيد المعاملة السيئة للطفل بالزجر والعقاب الفاحش،والزجر الفاحش،الأمر الذي يؤثر عليه ذهنياَ نفسيا،دونما تقصي أو استفسار عن سبب الأخطاء التي ارتكبها[44]، يمكن أن نستشف سبب ضعف التربية بالوسط الريفي مرده إلى طبيعة النمط المعيشي الذي يتحكم في حضور أو غياب رب الأسرة عن البيت في ملازمة الأبناء الأمر الذي يؤدي إلى توكيل الزوج مهام التربية إلى الأم علاوة عن مهامها الأخرى و واجباتها مما يبين تزايد الغبن الاجتماعي في الأسر البدوية[45].

ب–دور المؤدب في تربية الطفل:

يعتبر المؤدب المصدر الثاني لتربية الطفل بعد الأسرة وهذا يتم من خلال التوجيه وتقويم سلوكات الصبي[46].يدرس المعلم الصبيان في المسجد أو الزوايا و قد يتعدى ذلك إلى الزوايا[47] والضياع و الشعاب[48].

تكمن مهمة المؤدب الأساس في تلقين الطفل قواعد السلوك وتشخيص الأخلاق السوية بإسداء النصائح حتى ينال حظوة تامة من العلم، من خلال اختبار قدراته وتمرين ذاكرته وترويض ذكائه وعرض الطفل على المسائل فان استعصت عليه يقوم المؤدب بتذليلها وتبسيطها حتى تكون في متناوله[49]. لكن تعليم الطفل يبقى ناقصا ما لم يتابع من قبل أوليائه من حيث اتصالهم بالمؤدب واستفساره عن حالة دراسة طفلهم ويصل ذلك إلى حد التشدد مع المؤدب ليكون مخلصا و متقنا في تعليم الصبيان[50].

يتوجب على المؤدب تأديب الصبي المتهاون عن حفظ دروسه و يتوعده دون أن يشتمه فان لم ينفعه التجأ إلى ضربه[51] ضربا غير فاحش يصيبه بالأذى، كأن يضربه على رأسه أو بطنه، ويكون تدخل المؤدب في عملية تأديب الصبي حول مسائل تربوية خالصة تقومه عن ترك الصلاة وعقوق الوالدين ومخالطة رفقاء السوء،كما يعمل على الاستخبار عن طريقة وضوئهم و منحى صلاتهم[52].

ناهيك عن تخاذله في حفظ لوحه[53] أين يعمد المؤدب إلى ضرب الصبيان المتخاذلين عن ذلك باستعمال السوط حيث يكون الضرب على قدر الجنحة التي ارتكبها الصبي،ويجوز له العمل على تجنب مذهبات الأخلاق كالكذب والسب والهرب من المكتب وكل ما يتنافى مع الأخلاق العامة[54].

كما يحثهم على التحلي بالصدق والسخاء والشجاعة[55]، وحرصه على تلقينهم مبادئ الدين و فروع الشريعة الإسلامية[56]، وتكون معاملة الصبي برفق وبحكمة ويتوجب على المعلم أن لا يفاضل أو يجالس احدهم دون غيرهم[57]،كما وجب عليه الاحتراز في التفرقة بين الذكور والإناث[58]ويحرص على عدم الاختلاط بين الجنسين فيفرق بينهم،وان تطلبت الضرورة خروجه من المكتب أناب عنه شخصا حتى يعود إلى مجلسه[59].

يقوم المؤدب في بداية تدريسه للصبيان بتعليمهم و تحفيظهم القران الكريم،«جرت العادة تعليم الصبيان القران والكتابة والأدب والعدد وغير ذلك»[60]، ويعلمهم الصلاة خاصة الذين بلغو سن المراهقة[61].

يذكر ابن مريم في ترجمته لوالد محمد بن محمد الشريف المليتي انه كان في آخر عمره معلما للصبيان في المكتب«وتخرج عليه أولاد كثيرون يحفظون كتاب الله العزيز و حين افقده الكبر صار يقرئ الأولاد في داره،دخلت عليه في اليوم الذي توفي

فيه فوجدته يقول للأولاد:ارفعوا ألواحكم بارك اله فيكم». وناب ابن مريم عن أبيه في تعليم الصبيان خلال مرضه مدة أسبوع لقنهم فرائض الوضوء و السنن الصلاة والغسل والتيمم و أركان الإسلام كاملة[62].

يستشير المؤدب الولي في حالة ارتكاب الولد جنحة الهروب عن المكتب أو تغيبه عن الالتحاق بالمجلس[63]، فيضربه ضربا يناسب جرمه«صفة الضرب وهو ما يؤلم ولا يتعدى الألم إلا التأثير الشنيع أو الوهن المضير»[64] والضرب على الرجلين هو المناسب لتامين الولد وتأديبه[65] ويكون الضرب على الأرجل على مرات متتابعة ثلاثا ثم خمسا ثم سبعا، كما يسمح المؤدب للصبي بالانصراف خارج المكتب لقضاء حاجته البيولوجية [66] كما يجوز للمؤدب تولية من ختم القران وأتم تعليمه لضرب الصبيان[67]، وهناك من يعنف الصبي في تأديبه بالضرب ثلاث على الأطراف أو الظهر،لكن ضرب المعلم للصبي على عمامته يمكن أن يصيب السوط عينه فوجبت عليه الدية[68].

روى ابن صعد التلمساني أن الشيخ محمد بن عمر الهواري كان يدرس في صباه عند المعلم علي بن عيسى واتفق والده معه على تأديبه وتعليمه القران ، «وقال له يا علي إياك تزجر هذا الولد أو تسوطه فاني أرجو من الله أن يفرحني به ... فاخذ المعلم في تأديبه وتعليمه فرأى عليه المؤدب اثر الغفلة والفتور في أحواله فظن أن ذلك من البله الذي يعتري اثر الصبيان فشدد عليه في الزجر وآمره بتعلم الحذق والفطنة،وربما ضربه على ذلك»[69]، ما دفع بالأب في معاتبة المؤدب وطلبه إياه الكف عن زجر الولد وكان رد المؤدب :« كيف اترك تأديبه وهو على هذه الحالة من العقلة والمشي بالحفا وعدم الحذق في أحواله فقال له الوالد: دعه على حاله فان ذلك من جملة التسديد والتوفيق الذي نشا عليه الشباب الذي يخصه الله بولايته ويخصصه بعبادته»[70]. وبعد ذلك حفظ محمد بن عمر الهواري القرآن وختمه دون عشر

سنين[71]، نستشف من هذا النص أن الأولياء لا يرغبون في تأديب أولادهم بالضرب العنيف والمبرح، لما يعرض الطفل إلى عواقب وخيمة تمنعه من إتمام دويلاته وتحصيله العلمي على المدى البعيد. لكننا نتساءل عن موقف نخبة العلماء والفقهاء من المسالة؟

يصف ابن خلدون ضرب الصبيان سواء كان من قبل الأب أو المؤدب بالاستبداد في التأديب[72]، ويرى أن التشدد مع أصاغر الصبيان له مخلفات سلبية في تكوين الولد وتعليمه فيقول: «ومن كان مرباه بالعسف والقهر من متعلمين ... سطا به القهر وضيق على النفس في بساطها وذهب بنشاطها ودعاه إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفا من إبساط الأيدي بالقهر عليه وعلمه المكر والخديعة»[73]، كما أن ضرب الصبي يكسبه شخصية ضعيفة نتيجة الخوف«وصارت له هذه عادة وخلقا وفسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمدن وهي الحمية والمدافعة عن نفسه أو منزله وصار عيالا على غيره»[74].

نهى الإمام أبي عبد الله محمد بن يوسف السنوسي عن ضرب الصبيان وخص المؤدبين في ذلك بقوله:«...كثير من المؤدبين لا رحمة ولا شفقة فيهم للأولاد والعياذ بالله ، فتجده إذ رأى شيئا من الصبيان، كأنه مجنون لسوء خلقه، وقساوة قلبه فيضربهم ضربا عنيفا ولا يبالي في أي موضع ضرب، وربما يناصب امرأته، فيرد غضبه على الأولاد فتجده كالمجنون أو كالحرس الذي يقيم الحدود ليضربهم بأي آلة ، فهذا وأمثاله لا يجيء من قلبه شيء من القراءة للأولاد ولا ينفهم الله بشيء مما قرؤوا على هذا المؤدب الخبيث، لأنه يعتقد بجهله أن بالضرب يقع الزجر والتعليم ، ولولا هو ما حفظوا... فكيف ينتفع الصبيان به؟ بل الغالب على مثل هذا أن تأديبه لا يزيد إلا شرا أو فتنة»[75]. فوجب بذلك مراقبة المحتسب معلم المكتب حتى لا يبالغ في إيذاء الطفل[76].

يرشدنا الإمام السنوسي إلى الطريقة المثلى في ضرب وتأديب الصبيان في نصه بقوله: «...فإذا رأى من الصبيان من يستحق الضرب ضربه ضربا معتادا على قدر ما يقع به الأدب بعد قطعه فانه لا تأثير للأدب في شيء، وإنما هو سبب عادى أجرى الله العادة بالنفع عند وجوده لا به، وقد يتخلف بل ربما لا يزيده التأديب إلا شرا وفتنة كما هو مشاهد بالضرورة، وما إذا ظن وان الضرب لا يفيد فضربه حين إذ شفاء للغيظ ،وهو حرام إجماعا لما تراه مثل هذا يحصل النفع»[77]

يعطف المعلم على صبيانه خاصة الذين يأتون من مناطق بعيدة عن مجلس فابن زكري الصبي،كان يتحمل مشقة السفر من تلمسان إلى العباد ليقرا على شيخه محمد بن العباس بعد وفاة شيخه احمد بن زاغو(ت845هـ/1441م)، فكان يذهب صباحا للعباد ويرجع مساء لتلمسان، وفي يوم عرقلت الثلوج طريقه إلى تلمسان فاختبئ في معلفة فرس شيخه فكان يستأثر قساوة البرد على تعطيل دويلته ، فراسل محمد بن عباس شيخ بن زكري السلطان ليكتب له بيتا بالمدرسة ويوفر له الفرش والمؤنة، ويبدو أن الشيخ قام بهذا رفقا بتلميذه «وهذا كله من بركة العلم والحرص في طلبه ... وهذا كله من دعاء الشيوخ له ورضاهم عنه وخدمته لأشياخه»[78].

ثالثاَ:التربية المهنية:

سعت الأسرة المغربية في العصر الوسيط إلى تربية أفرادها مهنياَ لاعتبارات اجتماعية و دينية و اقتصادية،حيث تدخله عالم الشغل منذ صباه حتى يتحلى بروح المسؤولية ويعمل في مساعدة الوالدين في كسب القوت،فاختلفت مجالات عمله حسب اختلاف مناطق استقرار أسرته خاصة وأن الطفل في البيئة البدوية أمام حتمية العمل لا محالة، فما هي مجالات العمل التي تحيط بهذه الفئة؟.

من المهام التي يكلف بها الصبي رعي الأغنام،فقد ذكر ابن قنفذ في ترجمته لحياة الشيخ أبي مدين شعيب الأنصاري كفله إخوته وجعلوه يرعى قطعان الغنم لصغر سنه،كما اشتغل أبو جمعة المطغري[79] برعي الماعز في صغره[80].

نجد في وثائق المراكشي الخاصة بالإجارة، وثيقة بعنوان"**وثيقة لإجارة الأب لابنه**"أجرة لعمل الخياطة أو الصناعة أو النسج في حانوته،كما يسند إليه عمل نقل الغزل إلى السوق[81]، ويبقى السؤال المطروح هل يرجع تخديم الطفل إلى مساعدة الأولياء في الإعالة أم الرغبة في تعلم الحرفة.

في وثيقة أخرى نلتمس فيها إجارة أم لحضونها للعمل جاءت بداية نصها: «**أجرت فلانة بنت فلان ابنها فلان الصغير الذي لأحضانها من فلان ليعمل له في تحويل غزل الكتان في المسرمات أو لعمل كذا في حانوته أو في طرازه بحاضرة كذا لسنة...**»[82]، وكتب ذلك بعقد يحدد بداية تاريخ العمل والإجارة[83]. لاشك أن الحاجة المادية دفعت بالأم إلى تأجير ابنها الصغير ويبدو أن عجزها عن تغطية نفقاته جر بها إلى هذا التصرف.

بقى هذا النظام التربوي سائدا بالمغرب الأوسط في العهد الزياني،من خلال الإشارات التي تقدمها المصادر التي عنيت بهذه الفترة،فيذكر ابن مريم التلمساني في ترجمته لأحمد ابن محمد ابن زكري التلمساني(ت900هـ/1494م)، أن هذا الأخير عندما توفي والده كفلت أمه بحضانته وكان مرادها أن يتعلم حرفة ما، فجاءت به إلى ورشة خياطة[84]؛مقابل أجرة نصف دينار شهريا، وفي حادثة طريفة ذكرها ابن مريم حول الفقيه احمد بن محمد بن عبد الرحمن بن زاغو(ت849هـ/1445م) الذي قصد الدكان الذي كان يعمل فين ابن زكري لقضاء حوائجه من الغزل، أين أعجب بالصبي لما سمع

صوته، وما زاده إعجابا حله لمسالة فقهية، الأمر الذي دفع بابن زاغو إلى تقديم أجرة شهرية مسبقة إلى أمه بمقابل السماح لابنها التفرغ للدراسة[85].

كما أن ابن زكري الطفل الصغير كان يعمل مع جملة الطلبة حيث يذهب برفقتهم إلى جبل ورنيد لشراء الفحم لشيخه محمد ابن العباس،حيث يحمل الصبيان الفحم على دوابهم وكانوا يصادفون مصاعب في طريق الرجعة إلى العباد بسبب الأمطار و الأوحال التي تعيق سير الدواب و تبلل الفحم،فكان ابن زكري يضع الفحم في حائكه ويحمله على ظهره[86].

يترجم ابن مريم لابن زروق الفاسي[87] الذي ذكر انه تيتم وهو رضيع فكفلته جدته المدعوة أم البنين حتى بلغ عشر سنين و أدخلته إلى تعلم الخرز[88]. نستشف مما تقدم أن الأسرة لم تغفل عن إدخال أبنائها إلى عالم الشغل وذلك بامتهانهم حرفا ومهن تعلموها حتى تكون لهم مكسباً ومعونة للأولياء لاسيما في الوسط البدوي بالمغرب الأوسط.

خاتمة:

قدمت الدراسة جانباً اجتماعيا وثقافيا بما يتعلق بالطفل في المغرب الأوسط على أساس كونه عنصراً فاعلاً لا يمكن الاستغناء عنه في تكوين الأسرة، يظهر هذا جليا من خلال تنظيم العائلة لطرق تربيته التي لم تختلف عن ما تدعو له الشريعة الإسلامية أو تلك المناهج التربوية المعاصرة،من خلال الاهتمام بتقويم سلوكاته داخل وخارج المنزل،وان اكتفينا بطرق تعليمه في المرحلة الأولى في الكتاتيب لتعلم القران وفنون الأدب إلاّ أننا يمكن أن نستشف مدى اهتمام الأب والأم بتعليم الأولاد، بالرغم من بساطته في الوسط البدوي عكس ما كان في المدن من تعليم مؤسساتي في المدارس والمساجد.

الهوامش:

1- **لرضاعة:** مدتها حولين او تزيد بمدة شهر أو شهرين، ويشترط فيها التغذية الصحيحة السليمة. أبو اسحاق التلمساني،اللمع، ص115. ابن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ص233، ابن الحاجب المالكي (ت646هـ)، جامع الامهات مختصر ابن الحاجب الفرعي، تحقيق وتعليق: ابو الفضل العمراني الطنجي، منشورات محمد علي بيضون/دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان، ط1، 2004 م، ص198.

2- **ابن خلدون** عبد الرحمن (ت808هـ)، **المقدمة**، دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان، ط1، 1993م، ص383. ابن خلدون، المقدمة، ص383.

3- **شرقي نوارة** ، الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي في عهد الموحدين (524هـ-667هـ)-(1126م-1268م)، مذكرة لنيل شهادة الماجيستير في التاريخ الإسلامي الوسيط، إشراف:عبد العزيز محمود لعرج،كلية العوم الانسانية و الاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، السنة:2007-2008م. الحياة الاجتماعية في الغرب الإسلامي على عهد الموحدين،ص152.

4- **بن دومي عابد،** الكوارث الطبيعية و الجوائح و الأوبئة في المغرب الأوسط و أثرها في المجتمع ما بين القرنين السابع والتاسع الهجريين (القرن13-15م) مذكرة لنيل شهادة الماجيستير في تاريخ المغرب الوسيط، إشراف:عبيد بوداود، تخصص:تاريخ وحضارة المغرب الأوسط، كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم العلوم الإنسانية، جامعة معسكر، 2011/2010م، ص100.

5- **الحسن الوزان الوزان** الحسن بن محمد الفاسي الشهير بليون الإفريقي (توفي بعد سنة 957هـ/1550م)، وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، 1983، ج1، ص83.

6- **عبد العزيز فيلالي،** تلمسان في العهذ الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية) دار موفم للنشر والتوزيع، ج1 الجزائر 2002. تلمسان في العهد الزياني،ج1،ص244، 245.

7- **الحسن الوزان،** وصف إفريقيا، المصدر السابق،ج1، ص83.

8- **احمد بابا التمبكتي** ابو العباس احمد (ت1032هـ/1624م)، اللالي السندسية في الفضائل السنوسية (وهو مختصر المواهب القدسية في المناقب السنوسية، تحقيق وتعليق: محمود براهم، موفم للنشر، الجزائر ، ص67.

9- **المقريزي** تقي الدين أبي العباس احمد بن علي بن عبد القادر العبيدي (ت845هـ)، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، إعداد: محمد عبد القادر عطا،دار الكتب العلمية، بيروت،1997 م، ج207/7.

10- **لونشريسي**، أبو العباس احمد بن يحي(ت914هـ)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل افريقية والأندلس والمغرب، خرجه مجموعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية،1981 م، ج7، ص150،151.

11- **الونشريسي**، المعيار المعرب، المصدر السابق، ج5،ص232.

12- **عبد العزيز فيلالي**، تلمسان في العهد الزياني، المرجع السابق، ج1،ص245.

13- **ابن قنفذ** أبو العباس ابن الحسن ابن الخطيب المعروف القسنطيني (**ت810 هـ**) ، انس الفقير و عز الحقير، اعتنى بنشره و تصحيحه: محمد الفاسي و أدولف فور،منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط المغرب،1965 انس الفقير و عز الحقير ، ص88.

14- **عبد الرحمن ابن خلدون**،المقدمة، المصدر السابق، ص382،383.

15- **نفسه**، ص383.

16-**ابن الحاج**، أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي المالكي(ت737هـ/1337م)، ،**المدخل لابن الحاج**، قراه وضبط نصه: أحسن احمد عبد العال، المكتبة العصرية، صيدا/بيروت/لبنان، المجلد الأول، الجزء الأول، ط1،2005، م2، ج2، ص268 ،269.

17-**ابن مريم** المديوني التلمساني، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، دراسة وتحقيق: عبد القادر بوباية، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1،2011م.

18- البستان، ص166.

19-**ابن قنفذ**، السابق، ص17.

20-ابن قنفذ ، ص214.

21- نفسه413.

22- أبو الحسن علب بن محمد التالوتي الأنصاري: "الفقيه العالم العامل الشيخ الصالح الولي الكامل". اخذ العلم عن الحسن أبركان وأبي إسحاق التازي، توفي سنة895هـ/1489م، ابن مخلوف، شجرة النور، ج1، ص384، عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر،ص57.

23- بن مريم البستان، ص246.

24- **السنوسي** أبو عبد الله (ت832هـ)، شرح المقدمات، تحقيق:نزار حمادي، مكتبة المعارف، بيروت/لبنان، ط1،2009 م. ،ص57، انظر:البستان، ص156.

25- **ابن مرزوق** أبو عبدالله محمد (ت781هـ)،**المناقب المرزوقية**، دراسة وتحقيق: سلوى الزاهري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية،ط1 ، المغرب،2008 ، ص175.

26- ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص219،216،197.

27- **ابن خلدون** أبو زكرياء يحي بن أبي بكر محمد بن محمد بن الحسن، (ت780هـ) ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد،تقديم و تحقيق و تغليق:عبد الحميد حاجيات،ج1،دار الطباعة الشعبية للجيش،الجزائر،2007،ص122

28- بلال الحبشي:من أكابر العلماء و المتصوفة بالمغرب الأوسط، ولد سنة559هـ/1163م،و لازم الشيخ أبي مدين شعيب في مدة تناهز15سنة وكان مولى له من خاصته و المقربين له،، توفي سنة 590هـ/1193م، اقبر بالعباد بتلمسان. ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، ص207.

29- البستان،ص243.

30- إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عهد المرابطين، المجنمع الذهنيات الأولياء ، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية ، ط2،2004 ، ص57.

31-**ابن الحاجب** المالكي (ت646 هـ)،**جامع الأمهات آو مختصر ابن الحاجب الفرعي**،تحقيق: أبو الفضل بدر العمراني الطنجي، دار الكتب العلمية بيروت/لبنان ، ط1، 2004، ص334.

32- ذكر صاحب البستان انه:من احد شيوخه وهو احمد بن عيسى الورنيدي الزكوطي المعروف بابركان من جبل بني ورنيد ، ص80.

33- ابن مريم، البستان، ص81.

34- انظر ترجمته في البستان لابن مريم، ص163 ،164.

35- ابن مريم، البستان، ص164.

36- **العقباني** أبو عبد الله محمد بن احمد بن قاسم بن سعيد (ت871هـ/1467م)، تحفة الناظر وغنية الذاكر، تحقيق علي الشنوفي،نشر: Institut Français de Damas ,Bulletin d Etudes orientales, Tome :XIX, Annee1965-1966,Damas,1965، 1967م،ص72.

37- البستان،ص417.

38- نفسه،ص381.

39- كمال الدين عمر بن احمد بن هبة الله ابن العديم الحلبي (588-660هـ)تذكرة الاباء و تسلية الابناء المسمى الدراري في ذكر الذراري، حققه و علق عليه:علاء عبد الوهاب محمد،(د ط)، (د تا)، ص48.

40- يوسف عابد،الموحدون في بلاد المغرب،أطروحة دكتوراه،كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة قسنطينة،*2009*م، ج1،ص279.

41- نفسه، ص279،280.

42- نفسه،ص276.

43- نفسه،ص277.

44- التّادليّ، أبو يعقوب يوسف بن يحيابن الزيّات، (ت617هـ/1220م). التّشوّف إلى رجال التّصوّف وأخبار أبي العباس السبتّي، تحقيق أحمد التوفيق، ط2–منشورات كلية الآداب، الرباط 1984م، ص98.

45- إبراهيم القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص57..

46- نفسه، ص62.

47- لمناقب المرزوقية، ص281.

48- المراكشي، المعجب، ص250.

49- إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب و الأندلس في عهد المرابطين، ص65.

50- نفسه، ص65.

51- المغراوي احمد بن أبي جمعة،(ت920هـ/1514م)، جامع جوامع الاختصار و التبيان فيما يعرض للمعلمين وآباء الصبيان، تحقيق وتعليق:احد جلولي البدوي ورابح بونار،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975م، ص35

52- نفسه،ص47.

53- نفسه،ص46.

54- المغراوي، جامع جوامع التبيان، المصدر السابق، ص39.

55- المغراوي، ص39.

56- نفسه،ص47

57- نفسه،ص39.

58- أبو الحسن علي القابسي (ت403هـ)،الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، دراسة وتحقيق:احمد خالد، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط1، ص131. المغراوي، ص43.

59- المغراوي، المصدر السابق، ص47.

60- المجيلدي (ت1094هـ)، التيسير في أحكام التسعير، تحقيق: موسى لقبال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2 ،1981 ص71.

61- نفسه،71.

62- ابن مريم،البستان،المصدر السابق،ص،415،416.

63- القابسي،المصدر السابق،ص129.

64- نفسه،ص130.

65- القابسي،المصدر السابق،ص130.

66- المجيلدي،المصدر السابق،ص71.

67- نفسه،ص141.

68- يستخدم المؤدب في ضرب الصبي ادوات كالدرة والفلقة للعقاب العنيف الدرة هي سوط من جلد البقر والفلقة هي عصا مثقوبة في طرفها محدودة في خيط يشد على رجلي الصبي ويشدها المعلم أثناء الضرب .انظر القابسي(هامش)،ص144.

69- فتاوى اللخمي،ص130.

70- **ابن صعد** ،محمد الأنصاري التلمساني(ت901هـ)،**روضة النسرين في التعريف بالأشياخ الأربعة المتأخرين**، مراجعة وتحقيق:يحي بوعزيز، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، طبعة خاصة، 2009، ص36.

71- ابن صعد، روضة النسرين، ص36.

72- نفسه، ص36،37.

73- **بن خلدون** عبد الرحمن، المقدمة، ص542.

74- نفسه،ص541.

75- نفسه،ص541.

76- التمبكتي ،المصدر السابق 2011،ص91،92.

77- أبو بكر احمد بن محمد بن هارون الخلال(ت311هـ)،الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر، دراسة و تحقيق:عبد القادر احمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان،ط1،1986،ص24.

78- احمد بابا التمبكتي،الآلي السندسية ،ص93.

79- ابن مريم ،البستان،ص100،101.

80- بو جمعة المطغري الكواش: من الاولياء انتقل من بلده مطغرة الى تلمسان،أين مات و دفن بها بباب كشوط، ابن مريم،المصدر السابق،ص148.

81- ابن مريم،المصدر السابق،ص148،149.

82- المراكشي عبد الواحد،وثائق المرابطين والموحدين،تحقيق:حسين مؤنس،مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة–مصر، ط1، 1997، ص509.

83- المراكشي،المصدر السابق،،ص513.

84- نفسه،ص513..

85- ابن مريم،البستان،ص99

86- المصدر نفسه،،ص100.

87- ابن مريم،البستان،ص101.

88- احمد بن احمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير بزروق، وصفه صاحب البستان "بالعالم العارف الصالح الولي الزاهد...ذو التصانيف العديدة والمناقب الحميدة والفوائد العتيدة"، له مؤلفات في التصوف وشروح عديدة ، ولد سنة846 هوتوفي سنة899هـ،البستان، ص108،113.درة الحجال، ص48.